

الفرق والمذاهب اليهودية فرق اليهودية في عهد الإسلام

❖ الدكتور محمد عبد الله عطوات



بين اليهودية والإسلام صلات تراوحت بين الود والعداء ولكنها اتسمت غالباً بالتسامح الإسلامي مع الآخر المختلف في الدين حتى قبل إن البلاد الإسلامية كان أفضل أرض الله التي عاش فيها اليهود بالمقارنة مع أوروبا أو غيرها من أقطار الأرض. في هذه المقالة يحاول الدكتور عطوات شرح كيفية نشوء بعض الفرق اليهودية في ظل الحكم والثقافة المسلمين.

دكتوراه دولة في اللغة العربية وآدابها، أستاذ مساعد في جامعة بيروت الإسلامية، كلية الشريعة.

اليهودية في الجزيرة العربية

اختلاف الباحثون حول وجود اليهود في الجزيرة العربية. وذهبوا في اتجاهات عديدة
أستطيع أن أتطرق إلى أحدهما:

أ- إن اليهود من سكان الجزيرة العربية.

وقد انقسم هذا التيار إلى فريقين:

الفريق الأول: قالوا: إن إبراهيم الخليل - عليه السلام - هو جد إسرائيل (يعقوب) وهو قد سكن الجزيرة العربية، وإسماعيل هو العم الوحيد ليعقوب (إسرائيل) ومن البدائي أن تكون هنالك زيارات وسكنى بين بني العمومة وحسن جوار، ولهذا أينما سكن العرب سيسكن اليهود. وهذا الفريق يشير إلى تسرب الدين اليهودي إلى قبائل الجزيرة العربية، ولما كان الدين المسيحي وافداً من خارج الجزيرة على يد الأحباش فقد رفضه العرب، وقاوموه، ولكن؛ لم يُحدِّثنا أحد من مؤرخي العرب أن العرب قاوموا الدين اليهودي، بل إنهم عاشوا معه في الجزيرة العربية. وهذا الفريق يشير إلى أن مملكة حمير قد تسررت إليها الديانة اليهودية، وقد اعتقها المالك ذو نواس، وهو صاحب الأخدود الشهير الذي وردت قصته في القرآن الكريم في سورة البروج «وَالسَّمَاءُ ذَاتُ الْبُرُوجِ ◆ وَالْيَوْمُ الْمَوْعُودُ ◆ وَشَاهِدٌ وَّمَشْهُودٌ ◆ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأَخْدُودُ ◆ النَّارُ ذَاتُ الْوَقْدُ ◆ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ◆ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ◆ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْغَنِيِّ الْحَمِيدِ»^(١).

ولي على هذا الفريق ما يلي:

١- بعد أن حطم الرومان مدينة القدس، وهدمها، وبنوها من جديد، وسمّاها إيلي كاتب علينا، تفرق اليهود في شتى بقاع الأرض ومن ضمنها دخلوا الجزيرة العربية، وسكنوا يثرب، وكان فيها العرب الأقحاح من قبلهم، ولما طفى اليهود على المدينة استجد العرب بإخوتهم في اليمن، فأتى أحد ملوكها، وحارب اليهود وغلبهم، فاستسلموا له، وقبلوا بشروطه، وأقاموا تحالفاً مع سكان المدينة وحسن الجوار. ولهذا، تحالف بعضهم مع الأوس، وتحالف آخرون مع الخزرج، وكانوا يؤلّبون الفريقين على بعضهم، ويمدّون الطرفين بالسلاح، ويقرضان الطرفين الأموال بفائدة عالية.

٢- لم يكن إبراهيم الخليل (عليه السلام) في يوم من الأيام جدّاً لليهود، ولا كان يعقوب في يوم من الأيام، وقد ردّت على هذا في «جذور اليهود» فليرجع إليه من شاء.

٣- قام صراع بين العرب واليهود ولا سيما في مدينة يثرب، والتاريخ العربي قد سجل لنا هذا، ما يدل على أن الدين اليهودي أتى وافداً.

٤- لم يتقبل العرب في جزيرتهم هذا الدين، ولم تتضم إليه القبائل العربية الكبرى، وإنما ظلوا ينظرون إلى اليهودي نظرتهم إلى إنسان غريب عن بلادهم.

الفريق الثاني من هذا التيار: قالوا: إن بلاد إسرائيل التي صورتها التوراة ليست إلا في الجزيرة العربية، وإلى هذا أشار الدكتور كمال صليبي في كتابه التوراة جاءت من جزيرة العرب.

وسار في هذا التيار الصليبي عدد من المفكّرين نذكر منهم رياض الرئيس، زياد مني، مفید عرنوق، وأحمد داود.

ولكنهم اختلفوا أين كانوا يسكنون؟ هل سكناً جبال الحجاز (الصليبي)؟ أم جبال اليمن (زياد مني)؟

وامتدت النظريّة هذه من مدين شمالاً حتى مضيق باب المندب جنوباً.

واعتمد أصحاب هذا التيار على النقاط التالية:

أ- إن المسوّرين اخطأوا في تشكيل التوراة. ولهذا، قرأت الكلمات خطأ، وظن الناس أن التوراة وبيني إسرائيل كانوا في فلسطين.

ب- اعتمدوا على تشابه بعض الكلمات بين الأسماء في فلسطين والجزيرة العربية.

ج- اعتمدوا على باب الاشتقاء تارة والتحول تارة، ما أدى إلى كسر رقة الكلمات من أجل تطويقها لأهدافهم.

ولي على هذا الفريق ما يلي:

١- لو كان اليهود من العرب، ونزلت الرسالة على موسى (عليه السلام) لافتتاح انتشار اليهودية أكثر من ذلك في جزيرة العرب.

٢- لو كان اليهود من العرب فما الذي منعهم من العودة بعد أن انتهى العهد البابلي وسمح لهؤلاء المسيسين بالعودة إلى ديارهم فاتروا فلسطين، فلماذا لم يعودوا إلى ديارهم ومساكنهم؟

٣- لو كان اليهود من العرب، وكانت لغتهم العربية - وربما لجهتهم - ماتت وانتهت منذ زمن طويل، فإن الجزيرة العربية لم يعش فيها إلا اللغة العربية.

٤- لم يتفق أصحاب هذا التيار على مكان محدد في الجزيرة العربية، بل توسعوا في آرائهم حتى شملوا غرب الجزيرة العربية كلها.

٥- الأسماء العربية والأرامية التي اشتُقَّت منها العبرية متشابهة. ولهذا، سنرى أن هذه الأسماء يمكن أن تتطبّق في حضرموت أو عمان أو الكويت.

بـ- اليهود طارئون على الجزيرة، ولا يمتنون بصلة إلى الأمة العربية، والدليل على ذلك قلة الناس الذين يدينون باليهودية. فاليهودية كالمجوسية وفدت من خارج الجزيرة العربية إلى قلبها، فآمن بها بعض الناس كما صار في قبيلة حمير، وكانت سبباً من أسباب استعمار الحبشة لليمن، ثم كانت سبباً في جلب الاستعمار الفارسي إلى اليمن على يد الملك سيف بن ذي يزن إذ استعان على طرد المستعمر بمستعمر آخر، فاحتل الفرس محل الحبشة.

إذن، وُجدت الديانة اليهودية في الجزيرة العربية من أناس قد حلوا فيها ضيوفاً، ولما تمكّنوا أنسّبوا مخالبهم في جسمها تمزيقاً وتقطيعاً، فالمدينة المنورة كانت فيها بطون من اليهودية (بني النضير وبنو قريطة وبنو فينقاع)، وكان في ذلك وخبير وتيماء حصون يهودية، وكان اليهود سبباً في إثارة الأحقاد بين العرب والقتال المستمر بينهم.

موقفهم من الرسول العربي

كانت التوراة اليهودية - التي بين اليهود في الجزيرة العربية - تحمل الدلائل والبشرى بمجيء رسول في المدينة المنورة. وكان اليهود يعتقدونه فاتحة نصر لهم، وأنهم بواسطته سيقتلون العرب أي قتل، ويبعدونهم أي إبادة، شأنه في ذلك شأنهم مع كل الشعوب التي يسكنون بينهم، وكانوا يتوقعونه منهم، ولما ظهر الرسول العربي محمد (عليه السلام) عرّفوا أنه المبعوث المبشر به في توراتهم، ولهذا، قال القرآن الكريم عنهم: «الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرُفُونَهُ كَمَا يَعْرُفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فِرِيقاً مِّنْهُمْ لِيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ»^(١).

وأكَّد هذه الظاهرة أيضاً في سورة الأنعام: «الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرُفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ»^(٢).

وقد وصف اليهود في هاتين الآيتين بوصفين مختلفين؛ ففي الآية الأولى يُبيّن أن اليهود يعرفون أنه الرسول المبشر في توراتهم، ولكنهم كتموا الحق، ولم يظهروه. ومنهم من عرف الحق فاتبعه كعبد الله بن سلام ومخيرق الذي وصفه الرسول العربي محمد (صلى الله عليه وسلم) بأنه خير يهود.

أما الآية الثانية: فقد بيّنت أن الذين أنكروه - وقد عرفوه - إنما هم خسروا أنفسهم، وضاعت منهم فرصة الإيمان والسعادة.

ولهذا، أبعد اليهود هذه البشارات الموجودة في التوراة والتي تبشر ببعث الرسول العربي صلوات الله عليه وسلم.

ولما جاء العرب المسلمين ينافشون اليهود ثبات بعثة الرسول وأنها حقة، لجأوا إلى بعض النصوص التي تشير من بعيد بعد تغيرها من قبل اليهود، ولو رجعت إلى كتاب إظهار الحق لـألفيت أربع عشرة بشارة قد استخلصها العثماني من التوراة تُبشر بالرسول، وقد اختلفت مع هؤلاء وخاصة حينما أخذوا كتاب التوراة على أنه حق، وتمسكوا بنصوصه على أنها نصوص صحيحة، وفيها كلمة فاران التي رأى فيها هؤلاء العلماء الباحثون أنها جبال مكة، وقد كشفت خطأ هذه الكلمة ووضعها في موقع غير موقعها.

إذن، كان اليهود يستفتحون - بالنصر على العرب - بهذا النبي الذي كانوا يتوقعون مجيئه وأنه منهم، ولما أتى من العرب لم يقبلوا به، وكذبوا. وحلت الطامة حينما وصل الرسول إلى المدينة، ودخلها، واستقبل أي استقبال، وخرج رجال المدينة ونساؤها يغفون طلع البدر علينا، وهنا أسقط في أيديهم، وطلبو من حلفائهم في المدينة أن يدربوا عنهم خطر هذه الدعوة، فكانت الصحفة التي وقعاً بها الرسول ﷺ وأهل المدينة واليهود تتضمن على العيش بسلام مع بعض، وألا يغدر أحدهم بالأخر.

أعود إلى التوراء قليلاً لأذكر أن أبي طالب ذهب بمحمد ﷺ حينما كان صغيراً إلى بلاد الشام، ورأاه الراهب بحيرا، فطلب من أبي طالب أن يعود به؛ لأن اليهود إذا رأوه وعرفوه سيقتلونه، فعاد به إلى مكة المكرمة؛ ولهذا، فقد اليهود من جديد على العرب بمجيء مبعوث منهم يُشرِّر رسائلة سماوية، أفشل يتساوي العرب واليهود؟ الرُّسُل يجب أن يكونوا من اليهود - حسب نظرتهم - لأنهم الشعب المختار، وهم الأبناء البكر ليهوه الإله المزعوم، وقد ترجموا يهوه إلى الله ليخفوا عقيدتهم التي لا تؤمن بالإله العظيم خالق الكون، ورافع السماء، وباسط الأرض، ولهذا، كانوا يُصرّحون بأنهم أبناء الله وأحباؤه.

كيف اختار الله سبحانه وتعالى رسولًا من غيرهم؟ أليسوا هم الشعب الأفضل؟ فعادوا إلى كتابهم يستقرئونه من جديد، فرأوا هناك رُسُلًا من العرب آخرين، رأوا شعيب، وأيوب، وإسماعيل، وإبراهيم، وكانوا قد ربطوا أنفسهم بإبراهيم، ونفوا إسماعيل من السلك النبوى حسب التعبير الحديث ليُتَمَ - باسمهم - الربُّ الرسالات السماوية، وتحبظوا في اسم كاهن مدين، فهو تارة يثرون، وتارة رعوئيل، ونفوه من النبوة، وأبعدوا أيوب عن العربية، فألصقوه بهم، كما أبعدوانبي الله يونس، فألصقوه بهم، وأسقطوا الأقوام العربية الأخرى كقوم عاد وثمود، وأهملوها، فلم يذكروها في توراتهم أي ذكر ليقولوا إنهم المختصون برسالات ربهم.

هؤلاء الذين يظنون أن البشرية خدم لهم، وخلقوا من أجل هذه الغاية، أتى الإسلام ليُكذب بشكل واضح هذه العقيدة التي تميّز بين إنسان وإنسان **فِي أَيْمَانِ النَّاسِ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَاوَرُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنَّفَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَيْمٌ خَيْرٌ**^(٤).

وكم من فرق كبير بين هذه النظرة الشاملة للإنسانية وبين النظرة العرقية التي تميّز بين شعب وشعب، وبين لون ولون، واسمع هذا النص التوراتي:

«حين قسم العلي الميراث على ، وحين فرق بني آدم، نصب تخوماً للشعوب حسب عدد بني إسرائيل، إنَّ قسم الرب هو شبعه، يعقوب حبل نصبيه، وجده في أرض قفر، وفي خلاء مستوحش خرب، أحاط به، لاحظه، وصانه كحديقة عينه، كما يحرس النسر عشه، وعلى فراخه يرف ويحيط جناحيه ويأخذها ويحملها على مناكبه، هكذا الرب وحده اقتاده وليس مع إله أجنبٍ، أركبه على مرتفعت الأرض فأكل ثمار الصحراء، وأرضعه عسلاً من حجر، وزيتاً من صوان الصخر، وزبدة بقر وبن غنم مع شحم خراف وكباش أولاد باشان وتيوس مع دسم لم الحنطة، ودم العنب شربته خمراً»^(٥).

أيمكن أن يقول الإله هذا الكلام والإله نفسه قرر قاعدة إن أكرمكم عند الله أتقاكم؟ فأي إله يميّز بين عباده؟ أو أي إله يقبل أن يكون هناك شعب له وشعوب لغيره (وليس معه إله أجنبٍ)؟ أليس هذا اعترافاً بالشرك وجوداً للتوحيد؟

هذا الشعب المدلل عند يهوه أهينت كرامته حينما تساوى مع العرب في هذه الصحيفة، أهينت كرامته حينما جاء رسول ليس منهم، فبدأوا بالتأمر على الرسول الكريم، وبدأت المعارك بين اليهود من جهة وال المسلمين من جهة أخرى حتى تم إجلاؤهم عن المدينة، وتم فتح حصونهم في ذلك و蒂ماء وخبير. وحدثت مناقشات طويلة، ورد القرآن الكريم عليهم، وجادلهم، وكل قارئ للقرآن الكريم يلحظ الكم الهائل من الآيات التي تتحدث عن بني إسرائيل واليهود، وترد عليهم أقوالهم، وتقدّم مزاعهم.

وقد كتب اليهود التلمود وهم بعيدون عن عرب الجزيرة، لكنهم - رغم ذلك - لم يسلمو من أذى اليهود في تسجيلهم لهذا الكتاب، وإلى هذا وأشار الدكتور رزوق في قوله: ويحدّر التتوّيه بأن عناصر الصورة التلمودية لا تحلو من بعض التعامل على العرب الجاهليين مثلما هي شديدة التمييز ضد إسماعيل بن إبراهيم والمنحدرين من نسله.

١- في سفر سوکاہ يقول الرا比 حانا بن آبا نقلأً عما قيل في بيت المدارش: هناك أربعة أشياء يندم الواحد القدس تبارك اسمه على خلقه إليها وهي التالية: النفي، الكلدانيون، الإسماعيليون (يقول الناشر في هذه الحاشية: إن هذه التسمية مرادفة للعرب الذين يعيشون حياتهم كلها تحت الخيام) ونزعة الشر. ويسند قوله عن العرب إلى سفر أيوب. خيام المخربين مستريحة، والذين يغيظون الله مطمئنون.

٢- في سفر بابا متريا نجد الرابي جمایا بن إسماعيل يقول: إن المسافرين مع إبراهيم احتجوا لديه قائلين: هل تحسينا من العرب الذين يعبدون الغبار على أقدامهم؟ لقد سبق لإسماعيل أن تحدّر منك. المقصود أن إسماعيل يفعل ذلك في نظر الشارع.

- ينسب الريانيون إلى العرب أنهم يسيئون معاملة الأسرى من النساء.
- كما ينسب الريانيون إلى العرب أعمال السحر وألعاب الخفة، ففي سفر سندررين نقرأ عن عربي امتشق السيف، وقطع به الناقة، ثم قرع جرساً، فنهضت الناقة دون وجود أثر للدماء عليها^(١).

لكنَّ التوراة بحدِّ ذاتها في سِفْر عزرا ونحوميا رأت في العرب أناساً يعرقلون مشاريعهم في بناء الهيكل:

ولما سمع سنبليط وطوبايا وجسم العربي وبقية أعدائنا أني قد بنيتُ السور ولم تبق فيه ثغرة على أني لم أكن إلى ذلك الوقت قد أقمتُ مصاريع للأبواب، أرسل سنبليط وجسم إلى قائلين: هلن نجتمع معاً في القرى في بقعة أونو: وكانوا يفكرون أن يعملوا بي (نحوميا) شرّاً، فأرسلتُ إليهما رسلاً قائلًا: إني أنا عامل عملاً عظيمًا، فلا أقدر أن أنزل، لماذا يبطل العمل بينما أتركه وأنزل إليكم؟ وأرسلتُ إلي بمثل هذا الكلام أربع مرات، وجاؤتهما بمثل هذا الجواب، فأرسلتُ إلي سنبليط بمثل هذا الكلام مرة خامسة مع غلامه برسالة منشورة بيده مكتوب فيها: قد سمع بين الأمم وجسم يقول: إنك أنت واليهود تفكرون أن تتمروا لذلك، أنت تبني السور لتكون لهم ملكاً حسب هذه الأمور، وقد أقمتُ أيضاً أنبياء لينادوا بك في أورشليم قائلين في يهودا ملك، والآن يُخبر الملك بهذا الكلام، فهلم الآن نتشاور معاً، فأرسلتُ إليه قائلًا: لا يكون مثل هذا الكلام الذي تقوله، بل إنما أنت مختلقه من قلبك؛ لأنهم كانوا جميعاً يخيفوننا قائلين: قد ارتخت أيديهم عن العمل فلا يُعمل، فالآن يا إلهي شدّ يدي^(٢).

وهكذا تجمعت العداوة للعرب في ذلك الوقت لأسباب ثلاثة:

- لأن إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، قضية الإرث، حينما أصقوا أنفسهم بإسحاق ويعقوب ومحاولة إبعاد إسماعيل عن إبراهيم.
- موقف العرب الصريح الواضح ضدَّ بناء الهيكل قديماً وحديثاً.
- الدعوة الإسلامية التي نددت بمن يدعون أن لهم حق التمييز والانفراد، وأنهم شعب الله المختار.

هذه الأمور كلها دفعت باليهود إلى الوقوف ضد الدعوة الإسلامية، فتأمروا على الرسول العربي، ووقفوا مع مشركي قريش في غزوة الخندق، وحاولوا قتل الرسول (صلى الله عليه وسلم) حينما ألقوا عليه رحا من فوق سطح، وحاولوا سمه في الشاة المسمومة، وحاولوا حرره في خير، فكانت الدائرة عليهم، ولهذا وضعوا الرسول العربي - حسب رأيهم - في جهنم مع عيسى عليهما السلام. ومن ثم حينما رأوا أنهم مغلوبون دخل بعضهم الإسلام، وتأمروا على المسلمين، وكانت لهم بهذا مواقف منها:

- ١- مقتل عمر بن الخطاب، وكان لكتعب الأحبار يد في ذلك.
- ٢- مقتل عثمان بن عفان، وكان لعبد الله بن سبأ يد في ذلك.
- ٣- تمزيق المسلمين إلى طوائف يقاتل بعضهم بعضاً.

وحينما انتشر الإسلام في أنحاء الوطن العربي، وفارس كان من الطبيعي أن توجد بعض العناصر اليهودية في تلك البلاد، وقد وقفت تلك العناصر موقفين:

- ١- قبلت فئة منهم الأمر الواقع وعاشت فيه، ومن هؤلاء من اعتنق الإسلام، ومنهم من ظل على دينه، فعوّل معاملة الذميين، وعاش في ظلال سماحة الإسلام.
- ٢- قسم منهم هاجر، فاجتاز حدود الإسلام وال المسلمين إلى ربع آسيا أو إلى أوروبا، وفي آسيا عاشوا في بلاد الخزر ينعمون بالذلة تحت يد ملوكها، ويلعبون دورهم في تلك البلاد.

وفي هذه الفترة استغل اليهود تسامح الإسلام وأهله. ويمكن تقسيم الفترة الإسلامية بالنسبة لليهود إلى الفترات التالية:

- ١- الفترة الفاؤنية أو سيطرة اليهود الشرقيين، وتمتد من ٥٠٠ - ٩٨٠ م.
- ٢- الفترة الربانية الفلسفية، سيطرة يهود الأندلس ٩٨٠ - ١٤٩٢ م، وقت سقوط الأندلس.

ونقف في الفترة الإسلامية عند هذا الحد لنتكل بعد ذلك إلى الفرق التي وُجِدت في العهد الأوروبي، وتحت ظلال المسيحية الغربية.

اليهود وفرقهم تحت ظل الإسلام

١- القراءون.

لا نعرف متى بدأت هذه الفرقة في الظهور، إلا أنها شُهرت على يد الحبر عنان بن داود، وقد نسبها الكتاب العربي إليه فسمّوها العنانية، وهذه الفرقة شُهرت في زمن الخليفة أبي جعفر المنصور الخليفة الثاني العباسي.

ولهذا، يمكن أن يكون نشاط هذه الفرقة قد بدأ في دولة بنى أمية، ولكن هذه الفرقة لم تتشير بين أوساط اليهود بشكل واسع، وقد وقفت تناطح الفريسيين، فكان جزاؤها أن قُتل عنان بن داود في زمن أبي جعفر المنصور.

وهم يمثلون فئة قليلة من اليهود، ولما تدهور الفريسيون نما فريق القرائين ورأت أتباع الفريسيين ونفوذهم.

ومبادئ القراءين هي:

١- لا يؤمنون إلا بالكتاب المقدس فقط بما فيه من أسفار تاريخية، وأسفار أنبياء.

٢- لا يؤمنون بالروايات الشفهية التي تسمى المشنا والغمara (التلمود)، وإنما يعذونه لا يمت إلى الوحي بصلة، وإنما يرونها من عمل الأحبار والحاخامات، وقد عاشت هذه الفرقة طويلاً، ومن أتباعها السموأل بن يحيى الذي أعلن إسلامه، وهكذا ذابت هذه الفرقة إما في الإسلام وتسامحه، أو عادت إلى الفرقة التلمودية من خلال ضغط التلموديين عليهم.

ويقول الدكتور أحمد سوسة عنها: ظهرت هذه الفرقة في القرن الثامن الميلادي، أسسها الحبر عنان بن داود، وهي تدعو لرفض التلمود، وتتادي بنبنده، وتصف تعاليم الريانياين بأنها خارجة عن التوراة، وأطلقت على نفسها اسم القراءين.

تأثر فكر هذه الفئة بالمعتزلة الإسلامية، وانضم إليها عدد كبير من اليهود، واشتد الصراع بينها وبين الريانياين التلموديين، وكفر كل منها الفريق الآخر، وحرّم الريانياين الاحتكاظ مع القراءين، والتزاوج منهم كما عدوا الأطفال المولودين من هذا الزواج غير شرعيين^(٨).

وهذه الفرقة خالفت وصية التوراة حينما طلب موسى أن تقرأ مرتين كل سبع سنوات، وإنما طالبت بقراءة التوراة من قبل اليهود كلهم، ولهذا، دُعيت بالقراءين، وكان الريانيايون ي يريدون الاحتفاظ بهذه التعاليم، ولهذا، كانت الحرب بين الفريقين قاسية، إلا أن الذي أذكى نارها وقوى أوارها هم التلموديون.

ويرى الأستاذ شفيق مقار في كتابه السحر في التوراة: أن القراءين هم الذين وضعوا النجمة السادسية شعراً لهم، إن الحال لم تكن كذلك على الإطلاق في الأزمنة القديمة، ولا وجود في أي موضع من الكتابات العبرية ما بعد التوراة وحتى في التلمود البابلي أو تلمود القدس لأي ذكر أو وصف لشيء يدعى مجن داود، والثابت بالأدلة أن مجن داود لم يصبح ملحوظاً كرمز يهودي إلا عندما دخلته طائفة القراءين^(٩).

ولا أدرى من أين أتى بهذا الرأي، وبحذا لو أرشدنا إلى المصدر الذي يشير إلى ذلك.

وهذه الحركة (الحركة - القراءين) هي أول رد فعل ضد التلمود في العصر الغاؤني، ويقول الدكتور أسعد مزروق عن هذه الحركة: وسميت القرائية نسبة إلى أتباع التوراة أو المقرأ على النقيض من مشنا بمعنى التكرار الشفوي^(١٠).

والقراءين هم أصحاب عنان بن داود الذين أخذوا بالظهور منذ أوائل القرن الثامن، وسمّاها صاحب كتاب الملل والنحل بالعنانية، ومن ثم من بعد مقتل عنان

بن داود انتقلت الرئاسة إلى بنiamين النهاوندي تلميذ عنان بن داود، ثم استمرت على يد إسماعيل العكيري، وموسى الزعفراني التفلسي، ويودعان المداني، وإسحق بن يعقوب الأصفهاني، وسميت بالعيساوية بعد ذلك على يد دانياel القوميس الدامغاني.

والمهم أن القرائين ليست كما يقول أعداؤهم الريانيون ومن يجاريه من المؤرخين أنهم خرجوا وليدة النعمة الشخصية لدى عنان بن داود، بسبب إخفاقه في الوصول إلى رئاسة الجالوت، بل هي حركة مقاومة للسلطة التلمودية، والفرقة الريانية، وهي استمرار للعناصر الصدوقيّة والأسننية التي رفضت التلمود.

وأكّر من جديد: إنها تأثّرت بالفَكَرِ الإِسْلَامِيِّ وَعِلْمِ الْكَلَامِ الإِسْلَامِيِّ، وَعِقَادَتِ الْمُعْتَزَلَةِ، وَالْأَصْوَلِ عَلَى مَذْهَبِ أَبِي حَنِيفَةَ.

والمبأأ القرائي الذي أطلقه عنان بن داود ضد التلموديين هو العودة إلى التوراة والتقييد بنصها، ثم مباشرة البحث والتفسير على هذا الأساس واعتماد التأويل.

لقي التلمود معارضة شديدة لدى القرائين، وهم يرفضون التقليد الرياني، لذا، قوبل انتصار القرائين بحملة قاسية من جانب التلموديين.

في القرن التاسع توّطدت القرائية في بلاد فارس، واتسع انتشار الدعوة إليها بين اليهود حتى وصلت إلى مصر، وبلغت الأندلس، ما جعل اليهود ينقسمون إلى معتكرين، المعسكر الرياني التلمودي، ومعسكر القرائين.

بلغت الحركة القرائية ذروتها خلال القرن العاشر والحادي عشر حتى أن الفاؤون سعديا الفيومي (٨٩٢-٩٤٢) هب للدفاع عن اليهودية التلمودية ضد هجمات القراءين، وراح يؤلف الردود النقدية على معتقدات القرائين. ولما التجأ سعديا إلى الثقافتين العربية والإغريقية - في محاولته الرامية إلى إرساء دعائم العقائد الدينية والممارسات اليهودية على أساس عقلاني - كتب كتابه الفلسفـي بالعربية كتاب الأمانـات والاعتقـادات (٩٣٣) نسجاً على منوال علم الكلام الإسلامي.

لكن نجم القراءين لم يؤذن بالزوال رغم الهجمات المستمرة عليه من قبل التلموديين، وكانت الهجمات عنيفة الحرمان والقتل لأعلام القرائين، ونجد مركز الثقل اليهودي منذ أواسط القرن العاشر أخذ في الانتقال من مركز العراق إلى يهود الأندلس.

وانزوت هذه الحركة وانتهت حينما انتقل اليهود إلى أوروبا والدولة العثمانية في الشرق والمغرب العربي، وبدأت سيطرة اليهود الأوروبيون على الفكر اليهودي.

٢- موسى بن ميمون وفرقته:

موسى بن ميمون الرئيس، أبو عمران القرطبي اليهودي المُفْنَن في العلوم، كان رئيساً على اليهود بمصر. وكان أوحد زمانه في الطب.

له مشاركة في كل فن من الفنون، وهو جيد إلى الغاية على قواعدهم، وخاصة في كتابه دلالة الحائرين، وفي طب ابن ميمون يقول ابن سينا الملك:

أرى طب جالينوس للجسم وحده
وطب أبي عمران للعقل والجسم

وله مقالة في معالجة الحدبة صنعها للقاضي الفاضل، ومقالة في السموم وتنقية الفصول، وهو من أجل كتب الطب، وتوفي سنة عشر وستمائة للهجرة.

لعب هذا الرجل دوراً كبيراً في حياته، فقد كتب عن اليهودية، ونفاه التلموديون، وعدوه خارجاً عن الديانة اليهودية، وأعلن إسلامه، وهاجر من المغرب على متن سفينة إلى مصر، وصل إلى الناس المسلمين صلاة التراويح، ومن ثم أراد أن يرتد إلى دينه، حن إلى اليهودية، فسافر إلى الشام، وقام بلعنته الخبيثة، وبهذا، ظن الناس أنه غير الشخصية التي أعلنت إسلامها ليفر من العقوبة في الإسلام، وهكذا عاد إلى دينه اليهودي من جديد.

ولنعد إلى بحث حياته حينما كان في الأندلس، فقد تخرج على يدي إسحق بن يعقوب القاسي، وهو حاخام يهودي ورباني سابق خريج جامعة لوسيانا اليهودية، هذه الجامعة الواقعة بين قرطبة وغرناطة، ومؤلف في التشريع التوراتي التلمودي، وبعد كتابه تلموداً مختصراً، ولد موسى بن ميمون (١١٢٥)، وتوفي (١٢٠٤) وألف كتابه، وظل فيه مدة عشر سنوات (١١٧٠ - ١١٨٠) وهو تشية التوراة، وسمّاه اليد القوية، وعدد أسفارها أربعة عشر سِفراً. يقول إسرائيل ولفسون عن هذا الكتاب: إذا كانت طريقة التلمود هي العرض للموضوع وإفساح المجال للمناقشة بين أصحاب المذاهب والآراء المختلفة دون ترجيح في أغلب المشكلات، فإن موسى كان يعتمد على رجاحة عقله وعلى التقليد الموروثة، ويحكم حكماً فاصلاً، وهو لا يجمع روایات، ولا يدخل في غمرة مناقشات، بل يفصل تفصيلاً، ويحكم حكماً جريحاً مبيناً، فمن هنا نراه لا يشير إلى مصادر أو إلى أسانيد، وهناك من يعتبره أعظم مدون أنتجته قرائح اليهود، بعد تدوين التلمود^(١).

لقد مرّ بنا أن إسحاق بن يعقوب الفاسي كان أستاذ موسى بن ميمون، وقد أصدر تلموداً مصغراً عنونه باسم هالاخوت الأعراف، وقد حذف الرابي ابن يعقوب الفاسي جميع المناقشات الطويلة، وحافظ فقط على تلك المقاطع المرتبطة بشؤون الحياة العملية، ولم يكن هذا العمل منظماً، ولم يُعدّ ذا قيمة كبرى.

لم يعجب هذا الكتاب التلميذ النابه لإسحاق بن يعقوب، فنشر عملاً منظماً عن القانون

اليهودي، ولهذا، لقب موسى بن ميمون بنسر المعبد اليهودي. وُعرف عمله الشهير بعنوان بمشنا توراة؛ أي إعادة القانون، والمعروف أيضاً باسم أيداد هزا رفاه، أي: اليد القوية.

يضم كتاب موسى بن ميمون هذا أربعة مجلدات أو أجزاء، ويتألف من أربعة عشر كتاباً، وهذا كلّه يشتمل على التلمود بكامله. وأضاف بن ميمون إلى عمله هذا بحثاً فلسفياً ضخماً حاول فيه اشتراط قوانين وأحكام من عنده.

ولهذه الأحكام التي استنتاجها من عنده، وخالف فيها العرف اليهودي والتقاليد التلمودي نبذه جماعة الغاؤون، وعدووه مرتدأ عن الديانة اليهودية، وحكموا عليه بالإعدام، ففر إلى المغرب العربي، ومنه إلى مصر كما أسلفنا. ورغم ذلك ازدادت أهمية كتاب ابن ميمون هذا مع مرور الزمن، وجاء حين ظهرت نسخة معدلة من الكتاب عُدّت في نظر اليهود أفضل نسخ التلمود، لكنّ ثمة عيباً في كتاب ميمونيس (التسمية اللاتينية لابن ميمون) هو شموله على قوانين كثيرة لم تعد لها قيمة ولا معنى بعد خراب الهيكل.

وطُبع الكتاب طبعة أخرى حُذفت منه آراءه الفلسفية وجميع القوانين التي أصبحت عديمة الفائدة، صدرت هذه الطبعة سنة ١٣٤٠، بإشراف يعقوب بن أشير. وسميت هذه الطبعة بإجماع كامل بين آراء الرabbis أربعة طوريم، أي: الأنظمة الأربع.

وقد اختلف الفاسي وموسى بن ميمون ويعقوب بن أشير في عدة نقاط ما أدى إلى كتاب قانون جدير بهذا الاسم قام به رابي فلسطين جوزف كارو.

٣. الغاءون:

يُعدُّ الغاؤون امتداداً لجماعة التلموديين، وقد مرّ جماعة التلموديين بمراحل:

مرحلة الغاءون: ٥٠٠ - ٩٨٠ م.

وهذه المرحلة هي التي ستناقشها في هذه الفترة.

ميزات هذه المرحلة وأهم أحداثها اليهودية:

أ- أصبح التلمود اليهودي مصدر النفوذ الهائل في حياة اليهود، فهو المرجع المعترف به لكل من شاء الإطلاع، وبعد هذا سوف يتساءل القارئ ما التلمود هذا الذي لعب هذا الدور الكبير في حياة اليهود؟

إن لفظة تلمود في اللغة هو صيغة مشتقة من فعل لَدَ بمعنى تلمذ، والتلميد الدارس في المدرسة، ومن هنا التلمود كتاب الدراسة والتعليم، ويقول أساتذة اللغات العربية

القديمة: بأن جذر لام ولد أصلًا يفيد ذلك المعنى الحسي لفعل اللام، واللام هو حرف اللام في اللغة الآرامية، وعنها أخذت العبرية هذا الاسم.

وفي العبرية إن لفظة لاماد: تعلم، وهي تفيد التعلم، وتجري هذه الكلمة على عدة معانٍ:

١- التلمود بمعنى التعليم والتعلم والدرس (المدراش).

٢- تدل على التدريس بواسطة نصوص الكتاب المقدس، والاستنتاجات التفسيرية المستخلصة من دراسة تلك النصوص، حيث يتم شرح الأصول الشرعية، والأحكام الفقهية بالاستناد إلى النصوص التوراتية.

٣- التلمود بمعناه اللاحق كمصنف للأحكام الشرعية أو مجموعة القوانين الفقهية اليهودية، وهناك تلمودان:

١- التلمود الفلسطيني: ينسبه اليهود خطأً إلى أورشليم؛ لأن القدس خلت من المدارس الدينية منذ احتلال هادريان للأرض العربية الفلسطينية، وتهدم الهيكل، وقد انقل الأخبار من القدس إلى إنشاء مدارسهم في يمينية وصفورية وطبرية، كما أطلق يهود العراق على التلمود الفلسطيني أحياناً نسبة تلمود أرض إسرائيل، وتلمود أهل الغرب، نظراً لوقوع فلسطين غرب العراق.

٢- التلمود البابلي: وهو نتاج المدارس الدينية اليهودية في العراق، وأشهرها مدرسة سورا ونهاردينا وفومبديتا، يُعرف هذا التلمود في الحالات النادرة بتلمود أهل المشرق.

إذن، مرحلة الغاؤون أو سيطرة اليهود الشرقيين بدأ بعد أن أتم كتبة التلمود كتاباتهم، ولم يعد التلمود بحاجة إلى زيادة فيه، وأصبحت الأكاديمية البابلية مركز السلطة المركزية ليهود العالم قاطبة، فهي صاحبة التفسير المتأثر لأحكام التلمود، وإليها اتجهت أنظار اليهود طلباً للرأي والمشورة في تفسير النص، أو تأويل أحکامه وفقاً لحاجات الحياة ومتطلبات الأوضاع المتبدلة.

ومما لا شك فيه أن ازدهار دراسة التلمود وانتشارها من بابل إلى مصر وشمال إفريقية وأنطاكية واسبانيا وألمانيا وفرنسا وإيطاليا لم يبلغ هذا الاتساع والازدهار، إلا بفضل التأثير الذي تركته الثقافة العربية الصاعدة لدى اليهود المنتشرين في العالم الإسلامي.

فالحضارة الإسلامية العربية وسماحة الإسلام وتساهل المسلمين مع أهل الديانات الأخرى، هذا كله سمح لليهود أن ينهضوا بأدابهم ودراساتهم سواء كان ذلك شرعاً أم ديناً وعلماً، وقد شهدت بذلك الموسوعة اليهودية فقالت: كانت الحضارة العربية

في دنيا الإسلام أحد العاملين الرئيسيين اللذين أيقظوا القوى اليهودية من سباتها، وأطلقا الوحي لبروز النشاطات اليهودية وهي النشاطات الفكرية التي تدين فيها الروح اليهودية بالفضل على مدى قرون عديدة في النتاج الرائع والمثير.

ولذلك برع الغاؤون بالرد وأدب الردود على الأسئلة التي كانت تردهم، وكان الغاؤون رؤساء المدارس التلمودية في العراق يبعثون ردوداً لشتي التواحي والأمكنة التي يقطنها اليهود.

وصارت هذه الردود بجانب التلمود بمثابة العلم الشرعي الموثوق به، وصارت تراثاً للأجيال اللاحقة اليهودية.

وفي هذه الفترة - فترة الغاؤون - حدث الانشقاق بين القرائين والحركة التلمودية، وبلغت ذروة القرائين كما أسلفنا خلال القرن الحادي عشر، حتى أن الغاؤون سعدوا في اليومي / ٩٤٢ - ٨٩٢ هـ للدفاع عن اليهودية التلمودية ضد هجمات القرائين على التلمود.

ومنذ أواسط القرن العاشر بدأ مركز اليهود ينتقل من العراق إلى الأندلس، وذلك للاضطرابات التي أصابت الشرق، فالحروب الصليبية وحركات الحشاشين والحروب المغولية والزحف القادم من الشرق، هذا كلّه جعل اليهود يفرّون من الشرق إلى الغرب والأندلس، وبدأ المركز لدى يهود الأندلس.

واستطاع الغاؤون أن يقودوا سلطة التلمود، وبلغت ذروة السلطة التلمودية في القرن السادس عشر، ثم عادت الجماعة الريانية للسيطرة على مقاليد الأمور اليهودية، وفي هذه الفترة سيطر اليهود الإسبان من ١٤٩٢ - ٩٨٠، وهو تاريخ سقوط الأندلس.

٤- القبة:

مذهب جديد قام بين القرنين العاشر والحادي عشر، وتطور حتى القرن السادس عشر، ويقول في هذا إسرائيل شاحاك في كتابه «الديانة اليهودية و موقفها من غير اليهود»: إن الديانة اليهودية كانت تظن أنها ديانة توحيد كما يُعرف عنها وحتى الوقت الحاضر، وهكذا يقرّرها علماء اليهود التوراتيون، ولكن لو قرأها أي إنسان قراءة متأنية، وخاصة العهد القديم، فإن هذا الرأي لا يلبث أن يزول ويتبين خطأه الإنسان بكل سهولة، وسيرى هذا الإشراك في الكثير من الأسفار التوراتية من العهد القديم، فهناك أرباب آخرون غير يهود^(١).

إذن، هناك أرباب آخرون تعترف التوراة بهم صراحة، ولكنَّ يهوه كما تصوره التوراة هو أقوى الأرباب.

ما القبالة؟

القبالة مجموعة باطنية من الحكم التي لها علاقة بأسرار الكون والإله والكائنات الأخرى. ظهرت على يد عدد من أصحاب اليهود الذين تأثروا بالأراء الشرقية ودين زرادشت، ونشأت عنهم حركة سميت الحكمة المستورة، وصارت تُعرف عند اليهود بالقبالة، وهي كلمة آرامية تعني القبول والتصوف.

وضع هذا الكتاب موسى الليوني وهو من كتب التوعية، وكتبه باللغة الكلدانية القديمة. لكنه أنكر تأليفه، وزعم أنه عثر عليه في إحدى خزائن الكنيس القديم، وهذه العادة متّعة عندهم، فقد أدعى حلقيا الكاهن رؤية كتاب بالتوراة بين أكdas الفضة، لذلك أدخله اليهود ضمن مجموعة كتبهم المقدسة السرية.

وبالرغم مما أخذته القبالة من الزرادشتية، إلا أنها بقيت يهودية، ويُدعى القباليون أن سفر التكوين عندهم مستمدٌ من موسى، وأن موسى استمدَّ من إبراهيم إذا لم يكن من آدم أو ممَّن هم أقدم من آدم وأعلى مقاماً.

ويجمع الباحثون أنه كتاب شيطاني يبحث في أمور مختلفة... وأمور قدرة، بينما يُدعى مؤلفه أنه التفسير الحقيقي للتوراة.

فما الكتاب الذي وضعه موسى الليوني

يُسمى الكتاب الزوهرار: وضعه موسى الليوني الذي عاش /١٢٥٠ - ١٢٥٠/ والكلمة آرامية تعني النور والضياء، وهي مأخوذة من التوراة؛ حيث كان الإله يسِّير في الليل أمامهم عموداً من نور، أو قل هو الأثر الفارسي في الديانة اليهودية النور والظلام، وتتصل أسرار الزوهرار بالتوراة، وكل كلمة أو حرف من حروفها يحمل باعتقاد القباليين معنى باطنياً، والحياة في عُرف الزوهرار صراع بين الخير والشر.

ويرى القباليون أن الحروف الاثنين والعشرين حرفاً من الأبجدية العبرية والمشتقة من الآرامية نزلت من السماء قبل الخليقة بستة وعشرين جيلاً، وأنها نُقْت بنار ملتهبة^(١٢).

وكتاب الزوهرار قد أخذ من التوراة الشيء الكثير، ومما لا ريب فيه أن جذور التصوف ترجع إلى التوراة نفسها، فهناك مادة غزيرة جداً في أسفار العهد القديم، كما أن التلمود لا يقصر عنها أبداً في هذا المضمار، ومن الأمثلة البارزة على مادة القبالة في التوراة والتلمود نذكر ما يلي:

قصة الخلية في سفر التكوين، رؤيا أشعيا في الهيكل، أوصاف المركبة السماوية حرقاً، وتلك الرؤى الكشفية النبوية في دانيال. كما أن التلمود ممتلئ بالتأملات الصوفية حول مسألة عمل الخلق والمركبة الإلهية.

ويقول أبشتاين: إلا أن هذه العقائد الصوفية كانت موضع احتراس شديد في الأزمنة التلمودية، فلم يُسمح بشرحه إلا لفئة قليلة من المريدين المختارين خوفاً من أن يؤدي الإفشاء بسرها لدى الجهل إلى تعریضهم للفهم الخاطئ ما يؤدي إلى إنتشار الشكوك والهرطقة^(١٤).

هناك شذرات من أدب صوفي يُعرف باسم الهياكل والجدران السماوية، ويرجع تاريخها إلى زمن الغاؤنِيم، وهي تتحدث عن الذين ينزلون إلى المركبة أو يرتادونها، مثلاً يتحدث التلمود بالذات عن المتصوفين الذين دخلوا إلى جنَّات الفردوس، إلى جانب هذه الرواسب والشذرات يطالعنا كتاب شيعور كوماه (مقاييس القوم الإلهي) ويأتي سِفر تيزيراه (كتاب الخلق) الذي يذكره التلمود كمثال على أهم أثر صوفي يرجع عهده إلى تلك الفترة.

رجال القبالة

في القرن الثالث عشر نجد موزسن حمانيدس - توفي ١٢٧٥ / - وهو من كبار علماء التلمود في زمانه يبذل جهوداً واسعة لنشر عقائد القبالة وتعاليمها، ويحتمي خلف نفوذه التلمودي، ولكن؛ يعلن أن الصوفية هي من صميم اليهودية في جوهرها الصلب.

وفي مطلع القرن الرابع ظهر كتاب الزوهار متخدلاً شكلاً الشرح والتعليق ومؤلفه موسى الليوني، وهو عبارة عن شرح وتعليق على أسفار التوراة والوصايا الإلهية.

كيف نشأت القبالة؟

استمدَّ التصوف اليهودي - الذي كان مقدمة للقبالة - الكثير من عناصره من التلمود، وراح ينافع التلمود تلك السيطرة، حتى استطاع الوقوف إلى جانب التلمود ومقاسمه النفوذ المتزايد بازدياد.

وبدأت هذه العقائد بالانتشار منذ القرن الحادي عشر بين اليهود لكي تصبح في بداية القرن الرابع عشر مدار اهتمام الكثير منهم بعد أن كانت وقفاً على النخبة الممتازة التي تصطف في نفسها لقبول التعاليم والعقائد السرية وتلقيها عن السلف.

فما الطرق التي وُجدت في الزوهار لتحقيق الكشف التوراتي؟ إن الطرق التي استخدمها الزوهار لتحقيق الكشف التوراتي الإشراقي هي ذاتها المرصودة في التلمود، وقد سُمِّيت تلك الطرق الأربع باختزال حروفها الأولى إلى لفظة الفردوس، والعكس بالعكس، هذه الطرق هي:

١- التفسير الحرفي بيشات: وهي عبارة عن الفهم البسيط لمعاني الألفاظ والأشياء تمشياً مع مبدأ التفسير الأولي الذي يذكره التلمود، ولم يحدث أبداً أن عبارة من عبارات التوراة سافرت عملياً إلى ما وراء حدود معناها الحرفي.

٢- التأويل الرمزي أو التلميح: وتقوم على اكتشاف الدلالات المتضمنة في بعض الحروف العلامات السطحية في ظاهرها، فقد عدوا الحروف والعلامات بأنها تدل على الشرائع والقوانين غير المذكورة بوضوح أو بالتفصيل، لكنها إما موجودة تقليداً أو حداثة الكتابة، الإختزالية شبيهة بما كان يدونه كتاب الاختزال الرومان، ثم أضيفت النقاط والملحوظات إلى هامش النسخ المخطوطة، وبذلك تم وضع الأساس للنص القياسي المعروف بالمازورة حفظاً للنص بطريقة دبلوماسية.

٣- الدرس الشرحي المكثف (درش): وهو التطبيق الوعظي لما كان في الزمن الغابر على الماضي القريب وعلى الآتي، وتطبيق المعطيات التنبؤية والتاريخية على الوضع الراهن والفعلي للأمور والأشياء، وهذا أدى بدوره إلى قيام نوع غريب من الموعظة.

٤- السر بمعنى الطلاسم المغلقة والأسرار الخفية: وهذا ما شجع على قيام العلم الخفي أو السري، لكنَّ هذا العلم لا يدرك أسراره إلا القليلون، بينما ترددت أصواته في كل من الأفلاطونية المستحدثة والفنوصية، والقبالة والهرمية، فقد انطوى على شطحات خالية ورؤى شاردة للأشياء الخارجة عن نطاق هذا العالم، واختلطت فيه عناصر الشيولوجيا باليتافيزقيا، وأخبار الملائكة بأخبار الشياطين.

ماذا يحتوي كتاب الزوهار؟

إن الزوهار يستقي الكثير من التلمود، ثم يضيف عليه، وهو خلاصة التقليد الصوفي اليهودي حتى مطلع القرن الرابع عشر، فالأعداد والحرروف لها مفعول السحر، وتتبع خلف تجليات الكون وال الخليقة، ويمكن الجمع بين تلك الأعداد من ١٠ - ١ / على نحو لا نهائي. أما تعاليم الزوهار، فهي ترجع إلى جذور تلمودية منها ما يتعلق بفكرة مجيء المسيح المنتظر وعدةبني إسرائيل إلى فلسطين وقيام الهيكل في موقعه القديم.

والتوراة في نظر الزوهار هي المخطط والتصميم الذي تزود به يهوه قبل خلق العالم، لأن التوراة تحوي كل شيء، جميع العوالم الممكنة، وكل أفعال الخلق، لا، بل كل كلمة فيها ترمذ إلى شيء، وكل نقطة أو علامة تحفي وراءها سراً عظيماً.

يتجلِّي التطابق بين أحكام الزوهار والتلمود وبين أحكام الزوهار والأجزاء التي يتركب منها الجسم البشري، فقد أحصى التلمود أحكام التوراة واعتبرها تضم ٢٤٨ / أمراً من الأوامر أو الوصايا و ٣٦٥ من النواهي أي ما مجموعه ٦١٣ / وصية بين أوامر ونواهي، وهذا ما رمز إليه التلموديون الإشرافيون في حساب الجمل تربيع (٢٠٠، ر = ٤٠٠، ت = ١٠، ي = ٣، ج = ٢)، (٦١٣) (١٥).

ثم عمدوا إلى المطابقة بين عدد كل من الأوامر والنواهي وبين عدد الأطراف ٢٤٨

والمفاصل ٣٦٥ في جسم الإنسان حتى توصلوا إلى القول بأن مراعاة كل وصية من هذه الوصايا أو خرقها يؤدي عن طريق الطرف أو المفصل المقابل لها في الجسم البشري إلى رد فعل مماثل في عالم الأنوار، وبالتالي، ينعكس على الكون قاطبة.

إن هذه التعاليم والعقائد ليست يهودية المنشأ والأصل، لكنها استحوذت على عقول المثقفين اليهود، وسلبت لب الجماهير اليهودية^(١٦).

ويقول أبشتاين: خلال فترة قصيرة من الزمن امتلك الزوهار على اليهود عقولهم وقلوبهم، وأصبح المصدر الثالث المقدس بعد التوراة والتلمود للوحى والهدایة والإرشاد، ثم حمله اليهود معهم لدى الخرود من إسبانيا حيث رحلوا، فوصلوا إلى مدرسة صفد في القرن السادس عشر حيث كان إسحق لوريا ١٥١٤ - ١٥٧٢ / الملقب بالأسد يستعد لاستقباله والإسهام بقسط في شرحه وتطوره.

ومع القبالة يبدأ بيد بدأ اجتياح رؤى المسيحانية والعصر الألفي السعيد الذي سيعقب مجئه، ويُكمن تناقض بالغ العمق بالأخرويات، فديانة موسى كما أسسها عزرا، وصاغها، اسقط منها بعد الآخرى المتعلق بالعالم الآخر والحياة بعد الموت وأمل البعث والنشور، وقد جاء العنصر الآخرى في كتابات الأنبياء المتأخرين، وهو ما يتضح في سفر أخنوخ الذي كتب في القرن الثاني قبل العصر المسيحي، وفي الأسفار السibilية التي كُتبت بعد ذلك ببضعة عقود، وهكذا، عاد بعد الآخرى فاحتل مكانه في الزوهار.

كيف انتقلت الأسرار إليهم؟

وينسب القباليون الزوهار إلى موسى، وتعاليم القبالة عبارة عن أسرار على أعلى درجة من القدسية والخصوصية، علمها يهوه بنفسه الجماعة منتقاة من الملائكة لا لكل الملائكة، وبعد أن وقع آدم في الخطيئة الأصلية، وطرد من الجنة، أخذت بعض تلك الملائكة شفقة به فعلمته - بغير إذن يهوه - بعض تلك الأسرار على أمل أن يستخدمها في استعادة بعض ما كان قد فقد نتيجة لطرده من الجنة، وعرفت تلك الأسرار طريقها من آدم ونوح إلى إبراهيم، وعندما ذهب إبراهيم إلى مصر وأقام فيها هريراً من الجوع أفلت لسانه، فكشف عن بعض تلك الأسرار لـ الكهنة مصر، وكان ذلك هو السبب في أن أولئك الكهنة تمكّنوا - وهم غير يهود - من أن يتوصّلوا إلى فلسفات وديانات متقدمة رغم أن ما انبنت عليه ظل شكلاً ومجترءاً ومنقوصاً من تلك الأسرار العليا التي أفلّتت من لسان إبراهيم، وحقيقة أن موسى حينما تعلم تلك الحكمة تعلمها ابتداء من الكهنة المصريين. إلا أن ذلك كان من قبيل إنما بضاعتـا رُدّت إلينا، نظراً لأن أولئك الكهنة كانوا قد أخذوا

الأسرار عن إبراهيم، فالسلسلة اليهودية تبدأ بيده، وانقطعت بدخول الأغيار المصريين، وإذا استعاد موسى تلك الأسرار ظل يفكّر فيها طوال سنوات التيhe الأربعين، فنضجت في رأسه وأينعت بفضل ما ظل يتلقاه من دروس خصوصية كلفه بها ملاك يهوه بذلك.

لي على هذا النص الزواهري ما يلي:

أ- انقطعت السلسلة عند إبراهيم ولم تعلمنا من انتقلت هذه الأسرار: هل أخذها إسحق ويعقوب؟ وإذا ما أخذها فإن موسى لا يحتاج إلى تعلمها من المصريين. أم أن إبراهيم أخفاها عن إسحق وأعطها لإسماعيل. لم يحدثنا الزوهاز عن هذا على الإطلاق.

ب- إذا ماتت هذه الأسرار في صدر إبراهيم فإن موسى الذي تعلمتها لم يدركها، إلا في ساعات الموت كما يحدثنا الزوهاز، فإلى من نقل موسى تلك الأسرار؟ أم أنها انتقلت من موسى إلى آخرين؟ فمن هم الآخرون؟ هل هم أبناءه أم أبناء أخيه؟ أم هل هو يشوع؟

وإذا ما كان الأمر كذلك فكيف عاش بنو إسرائيل في عهد القضاة تحت عسف الآخرين وتعذيبهم أم أنهم أضاعوا الأسرار؟

إذا كان الأمر كذلك فكيف انتقلت هذه الأسرار لهم؟

ما الشعار الذي اتخذه القباليون؟

إن القباليين قد أخذوا الشعار عن القرائين مجن داود كما يسمونه، ونقلوه عن جماعة القرائين السابقين، وقد اتخذته دولة إسرائيل المزعومة أو الصهيونية بعد القباليين شعاراً وطنياً له ليُعبر عن كونه العلم الذي سيرفر ذات يوم لما تطمح إليه الصهيونية على العالم بأسره بتعبيره عن القطبين والمنطقة الاستوائية.

إن التلموديين البابلي والفلسطيني والتوراة بأسفارها كافة لم تتكلم عن مجن داود ولا عن التجمة السادسية، ثم إن التوراة حدثتنا عن حرب داود مع جوليات كما يقولون، فقد نزل داود دون مجن، وكان لا يحمل سلاحاً إلا المقلع، وانتصاره على جالوت يعدونه رمز تفوق داود، فمتى جاءه هذا المجن الذي لم يحدثنا عنه إلا القراءون والقباليون؟

ولكنا نتساءل: هل سار الزوهار مع التلمود جنباً إلى جنب؟

انقلب الزوهاريون على التلمود في القرن الثامن عشر بزعامة جاكوب فرانك ١٧٢٤ - ١٧٩١ / الذي ظهر في عام ١٧٥٥ في بدولية (بولونية) على رأس حركة مناوئة للريانيين، وللتمسك بالتلמוד، وقد عد فرانك نفسه بمثابة المسيح المنتظر، وبهذا، صارت القبالة فرقة خاصة ضدّ الريانيين التلموديين.

لقد حققت القبالة انتصاراً باهراً في أواخر القرن السادس عشر وفي القرن السابع عشر في كل مراكز اليهودية، ولكن حركة التوير اليهودية التي نشأت بسبب أزمة اليهودية الكلاسيكية ناضلت ضدّ القبالة الأرثوذكسية خاصة بين الحاخامات، ولكن حركة غوش أيمونيم في إسرائيل هي فرقة القبالة كاملة.

والقبالة في تعاليمها هي أشد إشراكاً من التوراة، فالكون لا يحكمه الله واحد فقط، وإنما يُحکم من قبل أرباب ذوات شخصيات مختلفة وتأثيرات متواتة تتبثق من علة أولى بعيدة مبهمة، فهناك إلى الله يُدعى الحكمة أو الأب، ثم آلّه تُدعى المعرفة أو الأم، وهما قد تولدا من العلة الأولى، كما خلقا زوجاً من الآلهة؛ الأصغر يُدعى الابن الأصغر المبارك أو المقدس، والابنة تُدعى السيدة أو ماترونيت وهي كلمة مشتقة من اللاتينية وتُسمى شخينة أو الملكة.

ثمة ضرورة لتوحيد الابن والابنة، إلا أن مكائد الشيطان تحول دون ذلك، وهو يمثل في هذه المنظومة شخصية هامة جداً ومستقلة، وقد تولت العلة الأولى الخلق لكي ينتج لها التوحُّد، ولكنها أصبحت أكثراً ابتعداً من السابق بسبب السقوط، وتمكن الشيطان فعلًا من الاقتراب كثيراً من الابنة المقدّسة وحتى من اغتصابها سواء في الرمز أو في الواقع، وتخالف الآراء هنا لبيان أسباب خلق اليهود ويقولون: إنما خلقهم لسدّ القطيعة التي أحدثها آدم وحواء.

ويفي جبل سيناء تحقق هذا الأمر لفترة بسيطة، الابن الذي في موسى توحد بالابنة شخينة ولكن؛ لسوء الحظ تسببت خطيئة العجل الذهبي بالانفصال مرة أخرى، لكن توبة الشعب اليهودي رتقت الشق نوعاً ما، بنفس العذر يقترن كل حدث في التاريخ التوراتي اليهودي باتحاد أو انفصال الزوجين السماويين.

كان اجتياح الإسرائييليين لفلسطين الكنعانية وبناء الهيكل الأول والثاني ممكناً بسبب اتحادهما فقط، كما أن دمار الهيكلين ونفي اليهود عن الأرض المقدسة هي علامات خارجة ليست لأنفسها وحسب، بل لفجور حقيقي، فجور على غرار الآلة الغرباء، حتى تقاد تسقط الأبناء تحت سيطرة الشيطان، ويأخذ الأبناء شخصيات أنشوية شيطانية مختلفة إلى فراشه بدلاً من زوجته الأصلية^(١٧).

هذا النص الذي نقلته عن إسرائيل شاحاك والذي يثار حوله الأسئلة العديدة، ولا أريد أن أثير حوله إلا سؤالاً واحداً:

هل الذين يؤمنون بهذه العقيدة يُعدُّون موحدين؟ وأريد أن أتجه فأتساءل ما موقف الزوهر من الآخرين؟ هل موقف القباليين كالتل모ذين أم أنهم كالصدوقين والقرائين؟ جواب واحد يكفياناً من الزوهر حينما نقرأ: من يفعل خيراً للأغيار فلن يقوم من الموت.

ومع القبالة يبدأ بيد العقيدة رؤى المسيحانية والعصر الأنفي السعيد الذي سيعقب مجئه، وهنا بشرت التوراة بهذا المجيء، ولكن؛ دون أن تذكر اسم المسيح، وكان هذا النص من تنبؤات أشعيا: ويخرد قضيب من جذع يسي، وينبت غصن من أصوله، ويحل عليه روح رب، روح الحكمة والفهم، روح المشورة والقوة، روح المعرفة، ومخافة رب ولذته تكون في مخافة رب فلا يقضي نظر عينيه، ولا يحكم بحسب سمع أذنيه، بل يقضى بالعدل للمساكين، ويحكم بالإنصاف لبائسي الأرض، ويضرب الأرض بقضيب فمه، ويميت المنافق بنفحة شفتيه، ويكون البر منطقة متينة، والأمانة منطقة حقوية فيسكن الذئب مع الخروف، ويريض النمر مع الجدي، والعجل والشبل المسمن معاً، وصبيٌ صغير يسوقها، والبقرة والدببة ترعيان، تريض أولادها معاً، والأسد كالبقر يأكل تيناً، ويلعب الرضيع على سرب الطل، ويمد الفطيم يده على جحر الأفعوان. لا يسيئون ولا يفسدون في كلب جبل قدسي؛ لأن الأرض تمثل من معرفة رب، كما تغطي المياه البحر، ويكون في ذلك اليوم أن أصل يسي القائم زاوية للشعوب، إيه تطلب الأمم، ويكون في ذلك اليوم أن السيد يعيد يده ثانية ليعني بقية شعبه التي بقيت من آشور، ومن مصر، ومن فتروس، ومن كوش، ومن عيلام، ومن شنوار، ومن حماة، ومن جزائر البحر، ويرفع راية للأمم، ويجمع منفي إسرائيل، ويضم مشتت يهودا من أربعة أطراف الأرض^(١٨).

هذا النص الذي ورد من أجل النبوة لي عليه الملاحظات التالية:

- ١- قال: يخرج قضيب من جذع يسي ولم يقل من نسل داود، وداود ليس الابن البكر لisi، وإنما هو أصغر أولاده، ولهذا، ليست البشرارة لداود أو لأبنائه.
- ٢- هذا الوصف وصف حسي كما اعتاد اليهود، وحينما جاء المسيح (عليه السلام) طالب بالعدل والمحبة والرحمة بينبني البشر كلهم.
- ٣- هذا النص عرقي واضح خاص ببني إسرائيل، وقد كانوا في المنفى كما يدل النص، ولو وصلنا إلى الاصحاح ٤٥ من أشعيا للاحظنا أنه يجعل كورش مسيحية المنتظر، علماً أنه لا ينتهي إلى جذع يسي.
- ٤- فكرة المسيح المنقذ أخذها اليهود عن الديانة الزرادشتية.
- ٥- هذه الأحلام الوردية التي وردت في هذا النص قد أخذها اليهود عن جنة ديلمون السومرية، وإليك نص ديلمون:

ديلمون لار ينعب فيها غراب
ولا تطلق فيها الحدأة صرختها الثانية
لا يفترس الأسد، ولا يخطف الذئب الحمل
ولا يقتل الكلب البري صغار الماعز
ولا يلتهم الخنزير البري الغلال
ولا يعرف الشر والمرض والشيخوخة

٦- يؤكد أشعيا أن هذا العصر الذهبي سيتعمّق فيه الأغيار بملذات ونعم لا توصف في ظل حكم صهيون.

٧- ينقلب المسيح المنتظر في التلمود إلى صورة المحارب القاضي الذي سيسحق الطغاة، ويدمر الأشرار، ويستأصل الشر من الخليقة.

فالصورة إذن من المتضادات التي نجدها في الديانة الزرادشتية، والتي تبلغ ذروتها في المعركة الكونية الفاصلة بين أهورامزد مثل الحياة والنور، وأهريمان الذي يمثل الموت والظلم، وهي المعركة التي تنتهي بانتصار النور والحياة.

ومع القبالة يبدأ بيد بدأ اجتياح رؤى المسيحانية والعصر الألفي السعيد الذي سيعقب مجئه، ولهذا، قال باتاي: إنه في العهد القديم ابتداءً من كتابات النبيين في القرن الثامن قبل العصر المشترك توجد شواهد قوية على أن الإيمان بيوم الرب شعبي قديم، فعامة اليهود توقعوا آملين أن يأتي يوم يُنفذ فيه يهوه وعده، وينتقم لإسرائيل من أمم العالم^(١٩)

الهوامش

- (١) - سورة البروج، آية ٨ - ١.
- (٢) - سورة البقرة، آية ١٤٦ .
- (٣) - سورة الأنعام، آية ٢٠ .
- (٤) - سورة الحجرات، آية ١٣ .
- (٥) - تثنية: ٣٢ / ٨ - ١٤ .
- (٦) - أسعد رزوق، التلمود والصهيونية، ص ٢٦٧ .
- (٧) - نحميا: ٦ / ٩ - ١ .
- (٨) - سوسة د أحمد، العرب واليهود، الجزء الأول، ص ٢٩٩ .
- (٩) - حسنين علي د. فؤاد، اليهودية واليهودية المسيحية، ص ٢ .
- (١٠) - مقار شقيق، السحر في التوراة، ص ٢٩٨ .
- (١١) - رزوق أسعد، التلمود والصهاينة، ص ١٨٥ .
- (١٢) - إسرائيل شاحاك، الديانة اليهودية، ص ٥٠ .
- (١٣) - م.ن.
- (١٤) - رزوق أسعد، التلمود والصهيونية، ص ١٨٢ .
- (١٥) - الحروف الآرامية هي: أب ج د ه ز ح ط ي ك ل م ن س ع ب ص ق ر ش ت، وعدها اثنان وعشرون. وتبدأ الأعداد الرقمية للحروف أ = أب = ١ ب = ٢ ج = ٣ د = ٤ ه = ٥ و = ٦ ز = ٧ ح = ٨ ط = ٩ ي = ١٠ ك = ٢٠ ل = ٣٠ ن = ٤٠ س = ٥٠ ع = ٦٠ ب = ٧٠ ص = ٨٠ ق = ٩٠ أ = ١٠٠ ر = ١٠٠٠ ش = ٢٠٠ ت = ٣٠٠ ، وعلى هذا الأساس جعوا تاريخ = ٣١٦ ، فلثاء ٤٠٠ والراء ٢٠٠ والباء ١٠ والجيم = ٣ ، والمجموع = ٦١٣ . هذه الطريقةأخذوها عن الآرامية، وهي موجودة في العربية، ولكن حروف العربية عددها ثمان وعشرون، تصل أرقامها / ١٠٠٠ = غ.
- (١٦) - أسعد رزوق، التلمود والصهيونية، ص ١٨٤ .
- (١٧) - إسرائيل شاحاك، الديانة اليهودية، ص ٥١ - ٥٢ .
- (١٨) - العهد القديم، أشعيا ١١ / ١٢ .
- (١٩) - الرئيس رياض، المسيحية والتوراة، ص ٧٨ .